

البطولة وهل ندرت؟

للاستاذ فتحي رضوان

يجوز لي أن أدخل في المناقشة التي أدارها الكاتبان ، النايفان ، عباس العقاد وأحمد أمين حول النبوغ والبطولة ...
يجوز لي أن أدخل في هذه المناقشة خصماً ثالثاً ، وإن كنت أكره لفظة « خصم » ولكن ما حيلتي وقد علمتها القانون ...! لقد طالعت مقال الكاتب النايف ، أحمد أمين ، وأدركت نظريته التي بناها على أن النبوغ هو سبق النايف لمعاصريه ، حتى ليعجزوا عن اللحاق به ، إلا بعد زمن قد يطول ، وذلك حين يكون النبوغ عالياً ورفيعاً ، وقد يقصر ، وذلك حين لا يكون النايف ممتازاً إلا بقدر ...

الأدب الاغريقي ، وعنه تلقوا رسالته وهي الجمال ، فصارت هذه رسالة الأدب الانجليزي أيضاً ، فكان الأدب الانجليزي يتوخى الجمال فيما يشاهد ويحس ويكتب ، في حين كانت الحكمة والعبرة والموعظة قلبه الأدب العربي في كل ذلك ، ومن الأدب الاغريقي تعلم الأدب الانجليزي أيضاً أن يطلق لفكره العنان ويفسح لبيانه المجال ، على حين ظل رائد الأدب العربي بلاغة الایجاز ، وكبح جمحات الخيال .

ومن ثم تمثل خير ما في الأدب العربي في حكم الشعراء والخطباء والكتاب ، وجوامع كلهم وموجز يانهم ، وتمثل خير ما في الأدب الانجليزي في سبحات الخيال المطلق المطبوع ، درامات وملاحم وقصص ، فالعيب الاجتماعي أو النقص السياسي الذي كان يراه الأدب العربي ، فتحمله الظروف سالفة الذكر على أن يصوغه حكمة موجزة عامة لا تثير رية السلطان ، كان يحرك حوله الأدب الانجليزي في قصة اجتماعية رحية الجوانب تشخيص موضع الداء تشخيصاً ؛ وتعين الدواء ، ويتجلى الفرق بين الاديئين في هذا الصدد في نوع عبقرية شاعريهما الفذين : فقد بلغت العبقرية الشعرية الانجليزية ذروتها في آثار شكسبير صاحب الدرامات العجاجة بالخيال المطلق ، وبلغت العبقرية الشعرية العربية أوجها في قصيد المتنبي الحافل بالحكمة البليغة

فخرى أبو السعود

ولقد ساقته هذه النظرية إلى نتيجة. آمن بها ، ودافع عنها ، وضرب الأمثلة العديدة على صحتها وسلامتها . والنتيجة هي التي استوقفتني ، فدفعني إلى التأمل فيما جاء بهذا المقال ، ثم هي التي حفزتني على كتابة هذا الرد . فالأستاذ أحمد أمين يرى أن نوايا هذا العصر قلة ، لأن أساليب التربية الحديثة ، ونظام المجتمع الذي نعيش في ظله أشاع العلم ، وأضعف الفوارق بين الخاصة والعامة ، وأتاح فرصة التحصيل والتفوق للفقراء وذوي الثراء . وقد بلغ اقتناع الأستاذ أحمد أمين بهذه النظرية وبنيتها مبلغاً حمله على أن يضرب لنا الأمثال بالتليذ في المدارس الثانوية ، فهو ينظر إليه ، كل يوم ، فيراه يطالع كتب الطبيعة التي تشرح قواعد الضوء والصوت ، والحرارة والكهرباء ، فيقول : « إنه يعرف ما يعرفه نيوتن ، وأكثر مما يعرفه » ، ثم يراه يقرأ كتب النحو والصرف ، والبلاغة فيقوى يقينه بأن ما وصل إليه من نتيجة صحيح جداً فيقول : « إنه يدري من النحو ، ما لا يدريه سيويوه »

ثم يطمئن إلى هذا الاستقراء فيقول لنا إذا كان حصول علمه يفوق علم جهابذة العلوم والآداب ، وهو بعد تلميذ في المدارس ، يخطئ ويصيب ، وينجح ويتعرض للسقوط ، وينذكر ويشكو قسوة الامتحان ، فكيف تظنون أن عهد النبوغ لم ينصرم بعد ؟ . وأين مجال التفوق أمام الموهوبين وذوي الجهد ما دامت المدارس قد ذلت المعرفة وفشت أبوابها على المصاريح ؟

قد كان التفوق والنبوغ بالأمس ممكناً ، لأن النابغة كان مبصر أوسط عي ، وصاحباً أوسط مغفلين ومدركاين جهال . أما اليوم فأصغر علماء الطبيعة كبارهم . يعرفان من أمر هذا العلم وقواعده قدرأ يكاد يكون متساوياً ، فإذا وجد الفارق بين العالم الصغير والعالم الكبير فليس هو بالفارق الذي يضني على الكبير منهما صفة النبوغ والتفوق ...

وقد سألنا الأستاذ أحمد أمين أن ندله على السياسي الذي يفوق أقرانه ويذهب ، وقد نهينا إلى استثارة الشعوب وبصرها الآن بأساليب الحكم وفقها لطرائق الإدارة ؛ ثم سألنا أن ندله على العالم الذي يسبق جيله أو معاصريه ، ونهينا إلى أن العلوم اليوم والفنون كذلك قائمة على سنة التخصص .

وأهمنا أنه لا يوجد طبيب، وإنما يوجد اختصاصيون في كل فرع من فروع الطب، ولا يوجد قانونيون، بل مطبقون لناحية واحدة من نواحي القانون ...

والحق أننا نشكر للأستاذ هذا التنبيه، لأننا نستطيع بعده أن ندله على النابغين المتفوقين الذين يسبقون معاصريهم بالسنين ويفوتونهم بالمراحل. فالتاريخ لم يعرف حاكماً كموسوليني ينبعث من خنادق الحرب، ثم يشغل سنين معدودة في الصحافة، ثم تدين له الدولة والأمة بالطاعة والانصياع. ويصبح البون بينه وبين أكبر رجال أمته شاسعاً، حتى لا يكاد يوجد في إيطاليا إلا موسوليني، الكلمة كلته، وكلته قانون، وقانونه مقدس أسمى من أن يشوبه خطأ، ثم تحالف عليه الدول وتطوق بلاده بحصار لا يرحم، فيجرح شجاعته، ويواجه العاصفة بسيل من الخطب ودنيا من التدابير ... فالتخصص ومجانبة المدارس وتذليل أساليب التحصيل، كلها لم تحل دون بروز شخصية سياسية طاغية في إيطاليا. وهذا البروز، هو التبرغ على الأقل كما وضع لنا الأستاذ أحمد أمين مقياسه - ولكن الأستاذ يريد أن ندله على نوابغ كثيرين وإلا كان محقاً فيما ذهب إليه من أن العصر الحديث لا يعتبر عصر النوابغ، بل عصر ارتقاء الجماعة الإنسانية ارتقاء لا يسمح بإيجاد الفوارق الواسعة بين العامة والخاصة، وبين الكبار والصغار. ولكن حسب الأستاذ الكبير أن يدير بصره في العالم بأسره ليعلم أننا نعيش في عصر النابغين فألمانيا يحكمها رجل واحد يتصرف في أمورها كما يحلو له. أو على الأقل كما يحلو له ومستشاروه الذين من حوله.

وروسيا، على رأسها رجل يضع دستوراً، وينفذ قانونها ويشرف على جيشها، والذين من حوله أقزام ينظرون إليه ولا يقوون على مقاومة إرادته ... وعلى الأستاذ الكبير أن يسأل من اليوم صاحب النفوذ الذي لا يجد في تركيا، وفي بولندا - قبل وفات سلسودسكي - وفي النمسا وفي تشكوسلوفاكيا في عهد مازاريك ليعرف أننا محكومون بالنابغين والمتفوقين في عالم السياسة ولبدرك أن بصر الشعوب بأساليب الحكم، وفطنتها الدستورية، لم تحل دون ظهور هذه

الكثرة من ذوى السلطان المطلق ...

فاذا رجعنا إلى التاريخ القديم، وجدنا أن روما التي احتملت موسوليني أربع عشرة سنة متوالية، لم تستطع أن تحمل يوليوس قيصر مثل هذه المدة.

قد يعترض الأستاذ فيقول: ولكن من قال عن هؤلاء الحكام نابغون؟ وهو لا يخرجني بهذا السؤال، لأنه هو الذي ضرب لنا المثل، بنابليون، ولا أحسب أن نابليون من حيث معدن العظمة يذو أحداً من هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم فاذا أردنا وجهنا إلى ميدان العلوم والفنون الفينا ميدان العاقلة والأقزام، ميدان الذين تلامس هاماتهم السماء والذين تلاصق أسماؤهم التراب. على الرغم من أن هؤلاء وأولئك، حصلوا على نصيب واحد من العلم المدرسي. فالأستاذ أحمد أمين يصيب كثيراً من العناء إذا هو أراد أن يجد قريباً لرجل ككارل ماركس ألف كتاباً قتل هذا الكتاب عروشاً، وأزال دولاً، وقلب وجه التاريخ، ورجل كداروين لا يشابه في ميدان الطبيعة أكثر الذين حوله، ولا نستطيع أن نقول إن كارل ماركس هو وحده النابغة في ميدان الاقتصاد. ولا أن داروين هو وحده المتفوق في ميدان الطبيعة، قالى جانب ماركس برودون وبلاخانوف ويوخارين وغيرهم وغيرهم ممن كانوا إلى جانب طلاب الاقتصاد وأساتذته وكتابه والمستغلين به نوابغ بل عباقرة. وفي الأدب يكتب الآن الكثيرون، والمطابع لا تنفك تخرج المؤلفات والمصنفات، ولكن ألا يوجد الكاتب الذي تساوى كلته في حساب المادة عشرات الجنيهات، والكاتب الذي لا تساوى كتبه شروى نقيير ... ثم ألا يوجد الكاتب الذي تفعل بدائعه في النفوس وفي الشعوب فعلاً تارة يدفع بها إلى العنف، وأخرى يميل بها إلى الرضا ... فكثرة الكتاب في أوروبا وفي العالم، وكثرة الموسيقيين وكثرة الاقتصاديين لم تحل دون النابغين، ولكن الأستاذ أحمد أمين يريد أن يرى هؤلاء النوابغ، ويريد أن يسألنا عن الفرق الكبير بين كاتب إنجليزي وكاتب إنجليزي آخر ... والحق أننا لا نتعب كثيراً في أن ندله عليهم، لا بدكر الأسماء بل بوضع قاعدة تغير الموقف.

على هامس رماني الى الجوار

ليلة في مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

أخذ النسق يهبط بسرعة في وادي مكة الضيق، المشبع بهواء الصحراء الجاف؛ وهنا بدأت خيوط الأصيل الذهبية تتلاشى ثم تختفي دفعة واحدة كأن ستاراً أسدل عليها بغتة؛ وبعد فترة وجيزة أخذ الليل ينشر خيمته السوداء فنسينا حينذاك ذكريات الغروب الجميلة وأصبحت لدينا كالم سافر بعيد، ثم خيم السكون وشمل المدينة كلها.

وكنت أشاهد منظر غروب الشمس من إحدى نوافذ بيتي الصغير في مكة. ولم ير الديك الذي كان يصيح طيلة النهار داعياً لا يقف صياحه، كأن عظمة هذا الغروب لم تؤثر في نفسه، ولكن الدجاج لاذت بالصمت وراحت تنساق أقفاصها استعداداً للنوم.

وكان يقع في طرف فناء البيت الصغير الذي أعد لضيافتنا قسم خاص بالحريم تجلس في إحدى غرفه سيدة وقور اسمها سنية، تقرأ القرآن على ضوء مصباح خافت اللون، على حين كانت ابنتها فاطمة النحيلة الحصر منصرقة إلى أعداد طعام العشاء لارساله إلينا مع إحدى العجائز. وحتى هذه العجوز الشمطاء كانت تتخذ كل الحيلة عند احضارها الطعام بحيث لا يظهر وجهها، وكانت تحمل الصينية على يديها ثم تدفعها بحذر على عتبة الغرفة وتنسل راجعة، فأقوم بدوري لأخذ الصينية بمجرد وضعها على العتبة. أما الطعام فهو لا يتخلو عادة من الأصناف العربية المشبعة بالتوابل

كانت هذه العجوز تحاول كما قلت أن تمنعني من رؤية وجهها، ولقد أفلحت في ذلك إلى حد كبير، فلم أر منها إلا ذلك الهيكل العظمي، ولم أسمع من حركتها إلا صوت ذلك القبقاب الخشبي الذي كنت أسمع طقطقته على الدرج

فالاستاذ لا يرى موسيقياً كالموصلى ولا كنهوفن. ولا شاعراً كشكسبير، ولا كالميتني. ولا كاتباً كعبد الحميد ولا كأمين المقفع ولا كما كولي. فيقول: لا نبوغ في هذه الأيام وينسى أن الذين يتحدث عنهم جميعاً طواهم الموت وأحاطهم القدم بجلاله، ومحا أسماء منافسيهم الذين كانوا يعيشون معهم وبقيت أسماؤهم وحدهم، وأن المعاصرين يعيشون معنا، ونحن نقرأ أسماء النوايع وأسماء العامة، أقصد العاديين من الكتاب والفنانين، ولكن غدا سيموت الجميع، والأجيال القادمة هي وحدها التي ستدون أسماء المتفوقين الذين عاشت بدائعهم، وخلدت مؤلفاتهم. وظهرت آثارهم، عظيمة ومؤثرة وجميلة وستقول هذه الأجيال كما يقول اليوم الاستاذ أحمد أمين إن جيلها يتخلو من النوايع وإن الأجيال السابقة هي عهد المتفوقين والمبرزين.

فقلنا مثل الذي يقف إلى جانب الجبل، لا يرى قمه، ولا سوافله، إنما يرى جسماً مسطحاً لا تضاريس فيه. فإذا بعد عنه ظهرت معالمه وبانت خطوطه واتضح له أنه عال في ناحية ومنخفض في ثانية، أو قل إن مثلنا مثل الوالد يعيش مع بنيه فلا يدري أنهم يزدادون طولاً مع مرور الزمن، فإذا غاب عنهم شهراً وعاد أدرك أن هذا أطول من ذاك، وأن أكبرهم أشد سمنة من أصغرهم، لأن طول النظر إلى الصورة لا يبرز معالمها.

المدارس انتشرت، والمعارف رخصت، ولكن النفس البشرية هي التي باستعدادها، سيقى النبوغ فيها استعداداً لا يضعفه نظام، ولا يقويه نظام، إنما يغير فيه قليلاً. لقد طرنا في السماء، وغصنا في الماء، ولكن لا يزال الواحد منا إذا ما خلا إلى نفسه في القمر، ثارت شجونته، وتحركت في عيونه شؤونه، تماماً كما يفعل ابن الصحراء وراكب الجمل.

وأحفادنا يقولون — حينما يقرأون مقالنا — إننا تعجلنا الزمن، فقلنا إنه عهدنا لا نبوغ فيه، ولأنهم سيرونه عهداً ككل العهود، فيه النوايع وفيه العاديين، فيه العالقة وفيه الأنزام.

فتى رضوانه